المقامة الخمسون أو هى البصرية

حكى الحارث بن همام قال : أشْعِرْتُ فى بعض الأيام هَمًّا برَّح به استعارُه ، ولاحَ على شعارُه ، وكنتُ سمعت أن غِشيان مجالِسِ الذِّكْر ، يَسرُو غواشِيَ الفِكْر ، فلم أر لإطفاء ما بى من الجَمْرَة ، إلَّا قَصْد الجامع بالبَصْرة ، وكان إذ ذَاك مأهولَ المسانِد ، مَشْفوه الموارد ، يُجتنَى من رِياضِه أزاهيرُ الكلام ، ويُسمع فى أرجائه صَرِيرُ الأقلام ، فانطلقْتُ إليه غير وَانٍ ، ولا لاوٍ على شان ، فلمَّا وطئتُ حصاه ، واستشرفتُ أقْصاه ، تراءى لى ذو أطمارٍ بالية ، فوق صخرة عالِية ، وقد عَصَبَتْ به عُصَبٌ لا يحْصَى عديدُهم ، ولا ينادَى وَلِيدُهم ، فابتدرْتُ قَصْدَهُ ، وتورّدْت وِرْدَه ، ورجوتُ أَنْ أجِدَ شِفائى عنده ، فلم أزل أتنقّل فى المراكز ، وأغْضِى للاكّز والوَاكِز ، إلى أن جلستُ تُجاهَه ، بحيثُ أمِنْت اشتباهَه ، فإذا هو شيخنا السَّرُوجىّ لا ريْبَ فيه ، ولا لَبْس يُخْفِيه ، فانْشَرَى بِرُؤْيَاه هَمِّى ، وارْفَضَّتْ كَتِيبة غمّى .

* * *

أشعرت : أُلبِسْت . برّح : شق واشتدّ . استعارُه : توقّده فى القلب . لاح : ظهر ، يريد أنه لبس الهمّ كالشِّعار . والشِّعار : ثوب يلى الجسد ، والشّعار علامة القوم فى الحرْب ، فمعناه عَبَس وجْهُه من شدة الهم . يسرو : يزيل . غواشى الفكر : مايغشاه ويدخل عليه من الهمّ . مأهول : كثير الأهل . المسانِد : جمع مُسْنَد ، وهو مايسند إليه ظهره ، أراد مواضع العلماء المتصدّرين للإقراء . والموارد : مواضع المياه . مشفوه : كثيرة الشفاه عليه للشرب ، وأراد

ازدحامَ الطلبة على الأشياخ لأخذ العلم . أزاهير : أنوار . أرجائه : نواحيه . صرير : أصوات . وانٍ : مقصّر . لاوٍ على شان : معرّج على أمر . استشرفت أقصاه : اطّلعت بنظرى عليه كلـه . تراءى : ظهر . أطار : ثياب خَلَقَة . عصبت : أحدقت وحلقت . عُصَب : جماعات . لاينادَى وليدهم ، هـذا مثل يستعمل فى الأمر المعجب المبالغ فى وصفه المعَجب منه ، وقد يؤوّل على تأويلات ، وهو يستعمل فى الخير والشر . والرخاوة والشدة . ابتدرت قصده ، أى عجلت المشى إلى جهتـه . توردت ورْده ، أى طلبتُ منفعتَه . والمراكز : مواضع الجلوس ، ومركز الرجل : موضعه ، وركزت الشيء غرستُه . أغضِى : أغمض على المكروه . اللاكز : الضارب فى الصدر . الواكز : الضارب فى ناحية الفم ، والوكز واللَّكز بجُمْع اليد . تُجاهه : قبالة وجهـه . اشتباهه : التباسه بغيره . يخفيه : يستره . انْسَرَى : زال وانكشف . ارفضَّتْ : تفرّقت . كتيبة غمى ، أى عسكره .

* * *

وحِينَ رَآنى ، وبَصُرَ بمكانى ، قال : يا أهلَ البصرة ، رَعاكم الله ووقاكم ، وقوّى تُقاكم ، فَمَا أضْوعَ رَيَّاكم ، وأفْضَلَ مَزَاياكم ، بلدُكم أوفَى البِلادِ طُهْرَة ، وأَزْكاها فِطْرَة ، وأَفْسَحها رُقعة ، وأمْرَعها نُجْعة ، وأقومُها قِبْلة ، وأوسعُها دِجْلة ، وأكثرُها نهراً ونَخْلة ، وأحسنُها تفصيلًا وجملة ، دِهْلِيزُ البلد الحرام وقُبالة الباب والمقام ، وأَحَدُ جَنَاحَىِ الدُّنْيا ، والمِصْرُ المؤسّسُ على التَّقْوى ، لم يَتَدَنّس ببيُوت النِّيران ، ولا طِيف فيه بالأَوْثَان ، ولا سُجِد على أَدِيمه لغيرِ الرَّحْمن ، ذُو المشاهد المشهودة ، والمساجِد المقصودَة ، والمعالِم المشهورة ، والمقابرِ المَزُورة ،

والآثارِ المحمودة، والخِططِ المحدودة، به تَلتقِى الفُلْكُ والرِّكاب، والحيتانُ والضِّباب، والحادِى والمَلّاح، والقَانص والفَلَّاح، والنَّاشب والرّامح، والسَّارح والسَّابح، وله آيةُ المدّ الفائض، والجزْرُ الغائض.

* * *

وقوله: وحين رآنى، يريد أنّ السَّروجى علم أنّ ابن هَمَّام يَعرِف مكره الناس فى كل بلد، فخشى ألّا يُسمح له بخداع أهل بلده، فأخذ يمدح البصرة وأهلَها ليرضية بذلك. رعاكم الله: حَفَظكم. وقاكم: كفاكم ما يحذر. تقاكم: خَوفكم لله. أضْوَعَ رَيّاكم: أنْوَح رائحتكم. مزاياكم: فضائلكم التى خُصِصتم بها. أوْفَى: أكمل. أفسحها: أوسعها. الرقعة: القطعة من الأرض. أمْرَعها: أخصبها. النُّجعة: موضع العشب يتجمعه النّاس. دِجْلة: نهر البصرة. تفصيلا وجملة، يقول: إن جزئت مواضعها وتناظر كل جزء منها مع كل جزء من غيرها كان لها الفضلُ، فإن قيل: أىّ البلاد أحسن على الجملة؟ قيل البصرة. الدّهليز: أسطوان الدار ومدخله، والمقام: موضع قيام إبراهيم عليه السلام عند الكعبة للدّعاء. أحد جناحى الدنيا: من قول أبى هريرة: «الدنيا على مثال الطائر، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربا وقع الأمر». المؤسس على التقوى: الذى بُنِى أساسُه فى الإسلام. يتدنس: يتوسّخ. الأوثان: الأصنام. أدِيمه: جلده، أراد به أرضه. الخِطَط: الدور والأزقّة. المختطة: الموسومة ليبنى فيها. الفُلْك: السفن. الركاب: الإبل، يريد أنها بحرية برية. الضِّباب: جمع ضَبّ. الحادى: سائق الإبل فإذا كان الحادى حسنَ الصوت بلغت الإبل جهدَها فى المشى. الملاح: خادم السفينة. القانص: صائد الحوت. الفلاح: الحرّاث. الناشب: الرامى النشّاب. الرامح: الطّاعن بالرمح، أراد الإغزاز لأنهم رماة والعرب لأنهم أصحاب رماح. والسّارح: راعى الإبل. والسابح:

العائم فى الماء . آية : علامة . المدّ والجزر ، أى زيادة البحر ونقصانه وهما الملء والحصر ، ونهر البصرة يركض فيه البحر .

* * *

وأمّا أنتم فمّمن لا يَخْتَلِفُ فى خصائصهم اثنان ، ولا يُنْكِرُها ذُو شنآن ؛ دَهْماؤكم أَطْوَعُ رعيَّةً لِسُلطان ، وأَشْكَرُهم لإحسان ، وزاهدكمْ أَوْرَعُ الخليقة ، وأَحْسَنُهُمْ طريقَةً على الحقيقة ، وعالمكم علامة كُلّ زمان ، والحجّةُ البالِغَةُ فى كلِّ أوانٍ ، ومنكمْ من اسْتَنْبطَ عِلْمَ النَّحْو ووضَعه ، والّذى ابتَدَعَ مِيزَان الشِّعْرِ واخْتَرَعَه ، وما مِنْ فَخْرٍ إلّا ولَكُمْ فِيهِ الْيَدُ الطُّولَى ، والقِدْحُ المعلَّى ، ولَا صِيتٍ إلّا وأَنتُم أَحقُّ به وَأَوْلَى . ثمَّ إنّكُمْ أَكْثرُ أَهلِ مِصْرٍ مؤذّنين ، وأَحْسَنُهُمْ فى النُّسْكِ قوانينَ ، وبكُمْ اقْتُدِىَ فى التَّعريف ، وعُرِفَ التّسْحِيرُ فى الشَّهْرِ الشَّريف ، ولكم إذا قَرَّتِ المضاجِعُ ، وهَجَعَ الهاجع ، تَذْكارٌ يُوقظُ النَّائم ، ويُؤْنِسُ القائم ، وما ابتسم ثَغْرُ فَجْر ، وَلَا بزغَ نورُهُ فى بَرْدٍ ولا حرّ ، إلّا ولتأذِينُكُمْ بالأسحار ، دَوِىٌّ كدَوىّ الرّيح فى البحار . وبهذا صَدَع عنكم النّقل ، وأَخبر النبىّ عليه السلام مِنْ قَبْل ، وبَيَّنَ أَنّ دَوِيَّكُمْ بالأسحار ، كَدَوِىّ النّحْلِ فى القِفار ، فشرفَّالكم ببِشارة المصطفى وواهًا لِمِصْرِكم وإنْ كان قَدْ عفا ، ولم يَبْق منه إلّا شفا .

* * *

خصائصهم : مايختصون به من الفضائل ، أراد أن البصرة اجتمعت فيها

الأشياء المتنافرة والمتضادة التى لاتجتمع ببلد ، فهى أجمع بلاد الله فائدة ، قال ابن أبى عيينة فى نحوه :

زُرْوادىَ القصر نعم القصر والوادى ... لابدّ من زَوْرة من غير ميعادِ
زُرْه فليس له شبه يقاربه ... مِن منزلٍ حاضر إن شئت أو بادِ
تَرى قراقره والعيس واقفةٌ ... والضَّبُّ والنون والملاّح والحادِى

[ذكر البصرة]

والبصرة اختطّها عُتْبة بن غَزْوان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمْر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعُتبة بدرىّ مهاجرىّ ، بناها سنة أربع عشرة من الهجرة فمرّ بموضع منها فوجد الكذّان ، وهى الحجارة الرّخوة فقال: هذه البصرة ، انزلوها بسم الله ، فسمِّيت لذلك البَصْرة ، واختُطَّت الكوفة سنة سبع عشرة من الهجرة فى المحرّم ، وكُسِرت البصرة فى أيام خالد القسرى فوجد طولها فرسخين فى مثلهما والكوفة ثلثاها . وأمّا فى أيام المنصور فقسَم على مَنْ يستوجب العطاء من أهل البصرة ألْف ألف درهم ، فأصاب كلَّ رأس درهمين .

ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدّعيَهَا عليهم : النّخل والشّاء والحمام ، أما النخل فهم أعلم خلق الله به وأحذقهم بإصلاحه ، وفيها من أصناف النخل ماليس فى بلد من البلدان ، وأما الشاء المعبدية فقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عبدالقيس ، فقال: يارسولَ الله إنى رجل أحبّ الشاء ، فدفع له فحلا من المعز فقبض بيده على أصل أذنه ، حتى استدارتْ أصابعه ، فصار فى أذنه كالسِّمة فسار إلى بلده فأطرقه شاءه ، فحُملت إلى البحرين ، فتناسلت هناك فليس فى البحرين شاة كريمة إلا وفى أذنها سمة كالحلْقة ، فيغالَى بها لتلك العلامة حتى تبلغ الشاة منها خمسين ديناراً ، وتعقد بالبصرة عقودها ، وفيها شاة لبنى فلان أمّها فلانة ، وأبوها تيس بنى

فلان ، مقدار حلبها بالغداة والعشيّ كذا . وحمامهم بلغت فى الهداية أن جاءت من أقاصى بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة وينتهى ثمنُ الطائر منها إلى تسعمائة دينار، وتباع بيضتها بعشرين ديناراً، وكلّ ما وصف فى المقامة موجود فى البصرة، ولمّا صعد علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه منبرها خطب وقال فى آخر خطبته : ياأهلَ البصرة، يابقايا ثمود ويا جند المرأة، ويا أتباع البهيمة ، دعا فاتّبعتم، وعقر فانهزمتم ، أما إنى أقول لارغبةً فيكم ولا رهبة منكم ، غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أرض يقال لها البصرة ، أقوَم الأرضين قبلة ، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، ومتصدقها أكثر الناس صدقة ، وتاجرها أعظم الناس تجارة منها إلى قرية يقال لها الأبلّة أربع فراسخ ، يستشهد عند مسجدها سبعون ألفا ، الشهيد منهم كالشهيد فى يوم بدْر . فبنى الحريرى فى مدح البصرة على هـذا الحديث ، وإنما ختم كتابه بذكر البصرة وأهلها لتقوى مفاخرهم ، ومفاخر بلدهم فى البلدان فيلهجون بالمقامات ويقدمونها على غيرها .

قوله : شنآن ، أى عداوة . دهماؤكم : جماعاتكم ، والدهماء معظمُ الناس وأكثرهم . والدّهم : العدد الكثير . عابدكم : زاهدكمُ كالحسن البصرى ومحمد ابن سيرين وغيرهما . الخليقة ، أى أخوف النّاس من الله تعالى . علّامة : كثير العلم .

[ذكر أبى الأسود]

ومستنبط علم النحو هو أبو الأسود الدؤلى ، واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان أحد بنى الديل من كنانة ، وهو يعدّ فى التابعين والمحدّثين والشعراء والبخلاء والنّحويين ، ويُعدُّ فى العُرْج والمفاليج والبُخْر ، شهد مع على رضى الله عنه صِفّين ، وولى البصرة لابن عباس رضى الله عنهما ، وكان من شيعة علىّ

وكانت امرأته عثمانية ، وكان أصهاره لا يزالوان يردّون عليه قوله فى علىّ ، فقال فيهم :

يقولُ الأرذلون بنو قُشَيْرٍ طَوالَ الدَّهر لا تنسى عليّا
فقلت لهم وكيف يكون تركِى من الأعمال ما يعصى عَلَيّا
أحبّ محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصيّا
بنو عمّ النبى وأقربُوه أحبُّ النّاس كلِّهمُ إليّاً
فإن يكُ حبهمْ رَشَداً أصبه ولست بمخطىء إن كان غيّا

ولم يشكّ أبو الأسود أنه رشد، وعلى هذا تأويل قوله تعالى :(وإنّا أو إيا كمْ لعلَى هدًى أو فى ضلال مبين) .

ومن بخله أنه كان يقول : لا تجاودوا الله فإن الله أجود وأمجد ، ولو شاء الله أن يوسِّع على خَلْقه حتى لا يكون فيهم محتاج لفَعل . وكان يقول لولده : إذا بسط الله لك فى الرزق فانبسطْ ، وإن قبضه فانقبضْ .

ومرّ برجل وهو يقول : مَنْ يعشّى هذا الجائع؟ فأدخله وعشّاه حتى شبع ، ثم ذهب السائل ليخرج ، فقال له : أين تذهب ؟ فقال : لأهلى فقال : لا أدعك تؤذى المسلمين بسؤلك ، اطرحوه فى الأدهْم ، فبات عنده مكبولاً حتى أصبح .

وكتب إلى رجل يستسلفه فكتب إليه الرجل : المؤنة كثيرة ، والفائدة قليلة ، والمال مكذوب، فراجعه أبو الأسود: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً ، وإن كنت صادقاً فجعلك الله كاذباً .

وقال الخليل : كان أبو الأسود ضنيناً بما أخذه من علىّ رضى الله عنه ، وذلك أنه سمع لحناً فقال لأبى الأسود : اجعل للناس حروفاً ، فأشار إلى الرفع والنصب والخفض .

وقال له زياد : قد فَسَدت ألسنة الناس ، لأنه سمع رجلا يقول : سَقَطت عصاتى ، فدافعه أبو الأسود .

وسمع رجلا يقرأ (أن الله برىء من المشركين ورَسولُه) نخفض ، فقال : ما بعد هذا شيء ، فقال له : ابغنى كاتبا يفهم ، فجيء برجل من عبد القيس ، فلم يرضه فَهْمُه ، فأتِىَ بآخر من قريش ، فقال له : إذا رأيتَنى قـــد فتحتُ فىّ بالحرف فانقط نقطة على أعلاه ، وإذا ضممتُ فىّ فانقط نقطة بين يديه ، وإذا كسرتُ فىّ،فاجعل النقطة تحت الحرْف، فإذا أُشْرِبت ذلك غُنّة ، فاجعل النقطة نقطتين ، فهذا نقط أبى الأسود .

واختلف الناس إليه يتعلمون العربية، وفرَّع لهم ما أصَّله فأخذه جماعة كان أبرعَهم عنبسةُ بن معدان المهرى يقال له الفيل ، فأقبل الناس عليه بعد موت أبى الأسود ، فبرع من أصحابه ميمون الأقرن ، فرأس فى الناس وزاد فى الشرح، فبرع من أصحابه عبــدُ الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، فبرع فى النّحو وتكلم فى الهمز ، وأملى فيه كتابا ،وأخذ أبو عمرو بن العلاء عمّن أخذ عنه ، ثم نجم من أصحاب أبى عمرو عيسى بن عُمر،ويونس بن حبيب وأبوالخطاب الأخفش ، فألّف عيسى كتابيْن سمى أحدهما الكامل والآخر الجامع ، قال المبرد : فأخذ الخليل عن عيسى ، فلم يكن قبله ولا بعده مثله ، وهو القائل يمدح كتابى عيسى :

بطل النحــو الّذى جَمَّعتُم غير ماأحدث عيسى بن عُمَرْ
ذاك إكمال وهــذا جامع وهُمَا للنّاس شمسٌ وقمــرْ

قال أبو العباس : وقد قرأت أوراقاً من أحدهما فكان كالإشارة إلى الأصول ، ثم أخذ عن الخليل جماعة لم يكن فيهم مثل عمرو بن قنبر سيبويه ، ويكنى أبا بشر وأبا الحسن ، وهو من موالى بنى الحارث بن كعب فألف كتابه الذى سماه قرآن النحو ، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل .

وأبو الأسود من سكان البصرة .

[الخليل مخترع علم العروض]

ومستنبط : مستخرج ، والّذى استنبط العروض هـو الخليل ، وذكره بعض العروضيين فقال : للخليل فى العروض حكمة مخترعَة ،وسابقة مبتدعَـة ، تبيَّن بذلك فضله ، وظهر تقدمه لأنه لم يتَّبع فيما وضعه أثراً موجوداً ، ولا اقتفى فيه رسماً مرسوماً، واهتدى إلى مالم يهتدِ إليه المتقدمون ولا أوجد مزيداً عليه المتأخرون . ولولا الخليل لمْيُسْلَمَ صحيح الشعر من كَسِيره، ولاسقيمه من عليله ، وفى حَصْره لجميع أوزان العرب فى خمس دوائر أعظم العَجب لمن تدبر ماصنع وفَهِم .

وكان الخليل يحب أن يرى عبدَ الله بن المقفع، وكان ابنُ المقفع يحب ذلك ، فجمعهما عبَّاد المهابى ، فتحادثا ثلاثة أيام ولياليهن ثم افـترقا ، فقيل للخليل : كيف رأيتَ عبد الله ؟ فقال : مارأيت مثلَه قطّ وعلمه أكثر من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيتَ الخليل ؟ فقال : مارأيتُ مثله قطّ وعقله أكثر من علمه ، وصدقا فى ذلك، أدَّى عقل الخليل إلى أن مات وهو أزهد الناس، وجَهْل ابن المقفع أردَاه ، فكتب كتاباً لعبد الله بن علىّ على المنصور ، فقال فيه ما كان مستغنياً أن يقوله ، ولايحتمل الأمراء دون الخلفاء مثلَه، فقال فيه : ومتَى غَدَر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله بن علىّ ، فنساؤه طوالق ودوابّه حَوابس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حلٍّ من بيعتـــه ، فاشتد ذلك على المنصور وكتب إلى أمير البصرة أن اقتل عبد الله بن المقفع فقتله .

وقال ابن المقفعَ إنْ أكرمك الناس لمـالٍ أو لسلطانٍ فَلا يعجبنّك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالهما ، ولـكن ليعجبك إن أكرموك لأدبٍ أو دين .

واتخذ عباد المهابى أرضاً فأراد غرسها ، فلامه أصحابُه وقالوا : هى سَبخة

فأشار عليه الخليل بغرسها ففرسها ، فجاءت بكل شيء حسن ، فحمل إليها الخيل فاستحسنها ، وقال :

ترفعتْ عن ندى الأعماق وانخفضتْ عن المعاطِش واستغنت بسُقْياها
فمال بالخوخ والرمان أسفلُها واعتمّ بالنخل والزيتون أعْلاَها
وصار يغبطه مَنْ كان يعذِلُهُ ولائم لامه فيها تمنّاها
أبا معاوية اشكر فضل واهِبها وكلما جئتها فاعمرْ مُصَلاَّها

وله :

عش مابدالك قصرُك الموتُ لامهربٌ منه ولا فَوْتُ
بينا غنى بيت وبهجتُه زالَ الغنى وتقوّض البيت

وتوفى الخليل سنة سبعين ومائة وهو ابن خمس وسبعين سنة وتقدمت أخباره فى الأربعين فلتنظر هناك .

قوله: اخترعه ، أى أوجده قبل أن يكون . مصر ، أى بلد . وقوانين : طرق مستقيمة . التعريف : حلْق الرأس بعد يوم عَرَفة . قرت المضاجع : نام الناس فيها . هجع : نام . ثغر : سنّ وأراد به بياض الصبح . بَزَغ : صَدَع وظهر . النَّقْل : الحديث: المنقول عن النبى صلى الله عليه وسلم . واهاً : عجباً . عفا : دَرس . شَفا : طَرْف وشىء قليل ، وشفا كلّ شىء حدُّه وطَرْفه .

* * *

ثمّ إنّه خزن لسانه ، وخَطَم بيانَه ؛ حتّى حُدِج بالأبصار ، وقرِف بالإقْصار ، ووُسِم بالاستقصار ، فتنفَّس تنفُّسَ مَنْ قِيدَ لِقوَد ، أو ضَبَثَتْ به براثِنُ أسَد ، ثم قال : أمَّا أنتم يا أهلَ البصرة ، فما منكم إلاّ العَلَمُ المعروف ، ومَنْ له المعْرِفة والمعروف . وأمّا أنا فمَنْ عَرَفنى

فأنَا ذَاك ، وشرُّ المعارف مَنْ آذاك ، ومَنْ لم يُثْبِتْ عِرْفَتِي ، فَسَأُصْدُقُه صِفَتِي .

أنا الّذى أنْجَـدَ وأَتْهم ، وأَيْمَنَ وأشأم ، وأَصْحَرَ وأَبْحَرَ ، وأدْلج وأسْحَر ، نَشَأْتُ بسَرُوج ، ورُبِيتُ على السُّرُوج .

ثم وَلَجْتُ المْضايق ، وفتحْتُ المغالق ، وشَهِدْت المعارك وألنتُ الْعَرَائك ، واقْتَدْتُ الشَّوامِس ، وأَرْغَمْتُ المعاطس ، وأَذَبْتُ الجَوامِد ، وأَمَعْتُ الجَلامِد .

* * *

خزن : حبس . خَطَم : زمَّ ، والخِطام حبلٌ يشد على أنف البعير . حَدَج : نظر إليه بحدّة . قُرِف : اتُّهم ، وقَرَفَتْهُ بشرّ . رميتـه به : الإقصار العجْز . قَود : قتل نفس بنفس . ضَبَثَتْ : عَلِقَتْ . براثن : أظافير . العلم . المشهور بالفضائل ، والمعروف الثانى : العطاء . أنجدوأتهم : أتَى نجداً وتهامة . أيمن وأشام : أتى اليمَنَ والشأم . أصحر وأبحر : مشَى فى الصحراء والبحر . أدلج وأسحر : مشى باللّيل والسَّحَر . نشأت : كَبِرت . ولَجْتُ : دخلت . المعارك : مواضع القتال . العرائك : الطبائع الصعبـة . الشوامس : الشَّوارد التى تأبَى الانقياد . أرغمت المعاطس : أذلت الأنوف أمعت الجلامد : أسَلْت المياه من الجنادل الصمّ .

* * *

سلُوا عنّى الْمَشَارِق والمَغَارب ، والْمَنـاسِمَ والْمَوَارِب ، والمحافلَ والْجحافل ، والقبائِلَ والْقَنَابِلَ ، واسْتَوْضِحُونِى من نَقَلَةِ الأَخْبَار ، ورُواةِ الأَسْمَار ، وحُداة الرُّكْبَان ، وحُـذّاق الكُهّان ، لتعلموا كَمْ فجٍّ

سَلَكْتُ، وحِجابٍ هَتَكْتُ، ومَهْلَكةٍ اقْتَحَمْتُ، ومَلْحَمةٍ أَلحمتُ، وكَمْ ألْبابٍ خَدَعْت، وبِدَعٍ ابْتَدَعْت، وفُرَصٍ اخْتَلسْت، وأُسْدٍ افْتَرَسْت؛ وكم مُحَلِّقٍ غادرتُه لَقًى، وكامِنٍ استخرجْتُه بالرُّقى، وحَجَرٍ شَحَذْتُه حَتَّى انْصَدَع، واسْتَنْبَطْتُ زُلالَه بالْخِدَع، ولكن فَرَطَ مافَرَط، والغُصنُ رَطيب، والفَوْدُ غِرْيِب، وبُرْدُ الشَّبابِ قَشِيب؛ فأمَّا الآن وقد اسْتَشنَّ الأديم، وتأوَّد القويمُ، واسْتَنَارَ اللَّيْلُ الْبَهيم؛ فَلَيْس إلَّا الندم إن نَفَع، وتَرْقيع الخرْق الَّذِى قَدْ اتَّسَع.

* * *

المَنَاسِم: أخفاف الإبل. الغَوَارب: مَقَادِم ظهورها. المحافل: الجموع. الجحافل: الجيوش. القنابل: جماعة الخيل واحدها قُنْبلة. استوضحونى: اطلبوا بيانَ أمرِى. الأسمار: الأحاديث باللّيل يُسْمَرُ عليها. الْحُداة: خدام الإبل. فجّ: طريق فى الجبل. سلكت: دخلْت. هتكت: خرقت. مهلكة: موضع خوف يَهْلِك فيه الناس. اقتحمتُه: ترامیت فيه. ملحمة: مواضع الحرْب الشديدة يلتحم فيها أهلُ العسكرين ويلتصِق بعضُهم ببعض. ألحمت، أى أوقدت النار بينهم حتى التصقوا وصاروا لحمةً واحدة، وذلك أشدّ مايكون الحرب. ألباب: عقول. بِدَع: جمع بدْعة، وهو الشىء المبدع. اختلستُها: أخذتها بسرعة واختطفتُها. محلّق: طائر فى الهواء. لقًى: مطروحاً على الأرض. وكامن: مستور. شحذتُه: صقلته. انصدع: انشق، وأراد بالحجر بخيلاً لايرشح بشىء كالحجر، فتحيّل عليه حتى أخذ مالَه. استنبطت: استخرجت. زلاله: ماءه العذْب الصافى، أراد أخذت ماله. فرَط مافرط، أى سبق ماسَبق. رطيب: ناعم، وغصنه: قامته. والفَوْد: ناحية الرأس. غريب: أسْود. بُرْد: ثوب. قَشيب: جديد. استشنّ الأديم: يبس الجلد،

والشنّ : القِرْبة البالية اليابسة . تأوّد القويم : اعوجّ المعتدل . استنار : أضاء وشاب . الليل البهيم : الشعر الأسود . وقال الشاعر فى معنى استشنّ الأديم :

يامَنْ لشيخٍ قد تخدّد لحمُه ... أفنى ثلاث عمائم ألْوَانا
سَوْدَاء حالكةٌ وسحق مفوّفٌ ... وأجدّلونا بعد ذاك هجانا
قصر اللّيالى خطوَه فتدانى ... وحَنَوْن قائمَ صُلْبه فتحانى
والموت يأتى بعد هذا كلِّه ... وكأنما يعنِى بذَاك سوانا

وقال ابنُ الرومى فى استنارة الليل :

فجار على ليل الشباب فضامَه ... نهارُ مشيبٍ مرمدٌ ليس ينفد
وعَزّاك عن ليل الشباب معاشرٌ ... وقالوا نهار الشيب أهدَى وأرْشَدُ
وكان نهارُ المرء أهْدَى لرشْدِه ... ولكنّ طَلّ الليل أندى وأبرد

وأنشد الزاهد ابن عمران قول الشاعر :

لم أقل للشباب فى كنف الله ولا حفظه غَدَاة استقلاَّ

فزاد بعد استقلا :

لاولا للمشيّب لَمّاً بدالى ... مرحّباً بالمشيب أهلاً وسهلا
مؤذن بالحمام هذا وذاكم ... سوّد الصحف بالذنوب وولّى

وأحسن ماقيل فى ذم خضابه قول ابن الرومى :

رأيتُ خضاب المرء بعد مشيبه ... حداداً على فَقْد الشبيبة يلبسُ[1]
وإلا فما يغرى الفتى بخضابه ... أيطمع أن يخفى شبابٌ مدلّس
وكيف بأن يَخْفَى المشيب لناظر ... وكلّ ثلاث صُبْحه يتنفس
وَهبهُ يوارى شيبَه أين ماؤه ... وأين أديمٌ للشبيبة أملس

(١) ديوانه

وقال محمود الوراق :

ياخاضبَ الشيبةِ نحْ فقدها فإنما تدرُجُها فى كَفَنِ
أما تراها منـــذ عاينتَها تزيد فى الرأس بنقص البدنِ

قوله : ليس إلّا النّدم . ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذنَبَ ذنباً أو أخطأ خطيئة فندم كانَ كَفّارةً لما صنع » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين ونور السموات والأرض وإن لكم من الله نَظِرة » .

كتب عبد الملك إلى الحجاج يتوعّد علىّ بن الحسين ويكتب إليه بما يقول ففعل ، فقال : إن لله لوحاً محفوظاً يلحظُه فى كلّ يوم مائة لحظة ، ليس منها لحظة إلا يُحْيِي فيها ويُميت ، ويُعِزّ ويُذِلّ ويفعل مايشاء ، وإنى لأرجو أن يكفيَك الله منها بلحظةٍ واحدة ، فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك .

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك : أكلت الجمل الذى ركب عليه أبوك من المدينة لأغزينّك جنودا مائة ألف ومائة ألف ، فكتب إليه عبد الملك بكلام علىّ فقال ملك الروم : ماخرج هذا إلا من كَلاَم النّبوة .

* * *

وكنتُ رُوِّيتُ من الأخبار المسنَدة ، والآثار المعتمدة ، أنَّ لكم من الله تعالى فى كلّ يوم نَظْرة ، وأنَّ سلاح النّاس كلّهم الحَدِيد ، وسلاحَكم الأَدْعِية والتَّوْحِيد ، فقصدْتُكم أُنْضِي الرّواحل ، وأطوِى المراحِل ؛ حتى قمت هذا المقام لديْكم ، ولا مَنَّ لى عليكم ؛ إذ ماسعيتُ إلّا فى حاجتى ، ولا تعبْتُ إلّا لِراحتى ، ولستُ أبغى أعطيتَكم ، بل أستدعى أَدْعِيتَكم ، ولا أسأَلُكم أموالَكم ؛ بل أستَنْزِل سؤالَكم

فادعوا اللهَ بتوفيق للمتاب ، والإعـداد للمآب ، فإنّه رفيع الدَّرجات ، مُجيب الدعوات ، وهو الذى يَقْبَل التّوبة عن عبـــاده ويَعْفُو عن السيئات . ثم أنشد :

أستغفرُ الله من ذنوبٍ أفرطتُ فيهنّ واعْتـدَيتُ
كم خُضْتُ بحرَ الضَّلالِ جَهْلاً ورحتُ فى الغىّ واغْتَدَيْتُ
وكم أطعتُ الْهَوَى اغتراراً واختلْتُ واغتلتُ وافتريتُ
وكم خَلَعْت العِذارَ رَكْضاً إلى المعـــاصى وما وَنيتُ
وكم تناهيتُ فى التخطّى إلى الخَطَايا ومَا انْتَهَيتُ
فليتَنِى كنتُ قبل هـــذا نسْياً ولم أجْـــنِ ماجنيتُ
فالموت للمجرمينَ خـــيرٌ من المساعى التى سعيتُ
يارَبِّ عفواً فأنت أهـــلٌ للعفْـــوِ عَنّى وإن عَصَيْتُ

* * *

أنضى الرواحل : أهزل الإبل . أطوى المراحل : أقطع الأرض مجتهداً ، وأردّ المرحلتين والثلاث مرحلةً واحدة . منّ : إحسان . أبغى : أطلب . الأعطية والأدعية : اسم لما يعطَى ولما يدعىَ . استنزل : أطلب بتلطّف . سؤالكم : طلبكم التوبة لى من الله تعالى . والمَآب : الرجوع . يعفو : يمحو ، وعفا الله عنك : درس ذنوبك ومحاها ، من عفا المنزل : درس وانمحَتْ آثارُه . وقال ابن المعتز :

كنت فى سفـــرة البطالة والغىّ زماناً فخان منى قـدوم
تُبْتُ عن كلّ مأثمٍ فعسى يُمحى بهذا الحديثِ ذاك القديمُ

وله :

الله يعلم ما إثمٌ هممتُ به إلاّ ونغّصه خوفى من النّارِ
وإنّ نفسىَ ماهمّتْ بمعصيةٍ إلا وقلبى عليها عائبٌ زارِى

آخر :

تطالبنى نفسى بما فيه صونُها فأغضى ويسطو توقُها فأطيعُها
ووالله مايخفى علىّ ضلالُها ولكنّها تأبَى فلا أستطيعُها

قوله : أفرطت ، أى ضيّعت . اعتديت : ظلمت نفسى ، قال داود الطائى : ما أخرج الله عبداً من ذُل المعصية إلى عز الطاعة إلا وأغناه بغير مالٍ ، وآنسه بغير أهلٍ ، وأعزّه بلا عشيرة . خضت : جُزْتُ الغىّ الضلال . اغترار : انخداع . اختلْت : تكبرت ومشيت تخيّلاً ، واغتلت : أهلكت ، والغِيلة : القتل بالخداع ، وغالهم : قتلَهم غِيلةً . افتريت : كذبت . خلعت العِذار : أزلت لجامَ الدّين الذى يمسكنى ، وتسيّبْتُ فى المعاصى . ركضا : جرياً ووثباً . وفيت : فترت وقصّرت فى الجرى إليها . تناهيت : أى بلغت النّهاية ، وهى آخرُ الشىء : التخطى . الجواز والقطْع ، وتخطّيت الشىء : جزته ، والخطايا : الذنوب ، وهى من الخطأ لأنّ فاعلها مخطىء بفعلها . والنسىّ : الشىء المنسىّ لحقارته لايخطر ببالك فتنْساه . أجْنِ : أكتسب . المساعى : جمع مسعاة ، وهى السعى والمشى الكديد ، والمساعى أيضاً : المواضع التى يُسْعَى فيها ، أى يُمْشَىَ بكدّ ، وقال حبيب :

أخاف إلهى ثم أرجو نوالَه ولكنّ خوفِى غالبٌ لرجائيَا
ولولا رجائى واتّكالى على الذى تكفّل لى بالصنع كهلاً وناشيَا
لما ساغ لى عذبٌ من الماء بارد ولا لذّلى نوم ولازلت باكيَا
على أنه قد كان منى جَهالةٌ ليالىَ فيها كنتُ لله عاصيا

أخذه من قول الحسن البصرىّ : ينبغى أن يكون الخوف أغلبَ من الرجاء فإن الرّجاء إذا غلب الخوف فسد القلب .

* * *

قال الرّاوى : فطفقتِ الجماعةُ تُمِدُّه بالدُّعاء ، وهُوَ يُقلّبُ وجْهَهُ فى السَّماءِ إلى أنْ دَمَعَتْ أجْفَانُهُ ، وبَدَا رَجَفَانُه ، فصاحَ : اللهُ أكْبَرُ بانَتْ أَمَارَةُ الاسْتِجابة ، وانجابَتْ غِشاوةُ الاسْتِرابة . فجُزِيتُمْ يا أهْلَ الْبُصَيْرَة ، جزَاء مَنْ هَدَى مِنَ الْحَيْرَة .

فلم يبقَ من الْقَوْمِ إلَّا مَنْ سُرَّ لِسُرُورِه ؛ ورَضَخَ لَهُ بِمَيْسُورِهِ فقَبِلَ عَفْوَ بِرِّهِمْ ، وأقْبَلَ يُغْرِقُ فى شُكْرِهِمْ .

ثمَّ انْحَدَرَ منَ الصَّخْرَةِ ، يَؤُمُّ شاطِئَ الْبَصْرَة ، واعْتَقَبْتُهُ إلى حيثُ تخالَيْنَا ، وأمِنَّا التَجَسُّسَ والتَّحَسُّسَ عَلَيْنَا ، فقلْتُ لهُ : لَقَدْ أَغْرَبْتَ فى هذهِ النَّوْبَةِ ، فما رأَيْكَ فى التَّوْبَةِ ، فقال : أُقْسِمُ بعلّامِ الخَفِيّاتِ ، وغَفّارِ الخَطِيّاتِ ، إن شَأْنى لَعُجابٌ ، وإنَّ دعاءَ قومِكَ لَمُجابٌ ، فقلْتُ زِدْنِى إفصاحاً ، زادَكَ اللهُ صلاحاً فقال : وأَبِيكَ لقدْ قمتُ فيهِمْ مقام المريبِ الخادِعِ ، ثمّ انقلبتُ منْهمْ بقَلْبِ المُنيبِ الخاشِعِ ، فَطُوبَى لمنْ صَغَتْ قلوبُهُمْ إليه وويلٌ لمن باتَ يَدْعُونَ عَلَيْهِ . ثُمَّ ودَّعَنِي وانطلَقَ ، وأَودَعَنِي الْقَلَقَ .

قوله : فطفِقْت ، أى أخذت وجعلْت . تمدّه بالدعاء ، أى تَصل دعاءها بدعائه،وتقول: امددته بالمال،إذا قوّيْتَه به،ومددتَه بالجيش. رَجَفانه: اهتزازه، ورجف الشيء : تحرّك،والرجفة : اهتزازُ الأرض. بانت : ظهرت . انجابت : انكشفت وزالَتْ . غشاوة الاستارة: غطاء الشكّ. رَضَخ : أعطى. ميسوره : ما تيسر له . وعفو برهم : فضل إحسانهم . يهرف : يكثر الكلام ويُطْنِب فى الشكر . انحدر : انصبّ . يؤمّ : يقصد . شاطىء : ساحل . اعتقبته : تبعته . تخالينا : صِرْنا فى خلوة من الناس . التّجسّس : طلب الشيء باليد ، وقيل : التجسّس: طلب الشيء بالكلام . والتحسس : طلبه باليد،ثم قد يقع كلّ واحد منهما موقع صاحبه . ابن الأنبارىّ : تجسس الرجل وتحسّس بمعنى واحد ، هذا إجماع أهل اللغة . وفرّق بينهما يحيى بن أبى كثير، فقال : التحسّس البحث عن عورات الناس والتجسّس الاستماع لحديث القوم . ابن الأنبارى : الجاسوس : الباحث على أمور الناس . النّوْبة : الدولة . إيضاحاً : بياناً . المريب : صاحب الريبة . المنيب : الرّاجع إلى الله بتوبته . الخاشع : هو الخاضع . صفت : مالت .

* * *

فلمْ أَزَلْ أعانِي لأجْلِهِ الفِكَر ، وأتشوّفُ إلى خِبْرةِ ما ذَكر. وكلّما استنشيْتُ خبَره مِنَ الرّكبان ، وجَوّابةِ البُلْدَان ، كنتُ كمن حَاوَر عَجْمَاء ، أو نادَى صَخْرةً صَمَّاء ، إلى أن لقيتُ بعد تَرَاخِي الأمَد ، وتَرَاقِي الْكَمَدَ ركباً قافِلين مِنْ سَفر ، فقلتُ : هَلْ من مغَرِّبةِ خَبَر ؟ فقالوا. إنّ عندنا لخبراً أَغْرَبَ مِنَ الْعَنْقَاء ، وأَعْجَبَ مِنْ نَظَرِ الزَّرْقَاء .

* * *

أعانى : أقاسى. أتشوف: أتطلع . خِبْرة: اختبار . اسْتَنْشَيت : استطلعت، وأصل معناه شممت . جوّابة : قَطّاعة . وجَوّالة أى الذين عادتهم الجوَلان فى

البلاد . حاور : كلّم . عَجْماء : بهيمة، والمحاورة : المراجعة فى الكلام. تراخى : طُول المدة . الكَمَد : مُصاحبة الهمّ والحزَن . ركباً : أصحاب الإبل . قافلين : راجعين من سفر . مغرّبة ، أى هل عندكم من حديث غريب . والعنقاء ، قال ابن عباس رضى الله عنه : هو طائرٌ فُضّل به بنو إسرائيل ، فانتقل بعد يوشع إلى بلاد قيس عيلان بنجدْ والحجاز ، فآذى الولدان، فشكَوْا ذلك إلى خالد ابن سنان ـ وكان نبيًّا بين عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ـ فدعا الله أن يَقْطع نَسْلها فبقيت صورتها تصوَّر فى البسط ، وكان أَجمل طائر وأعظمه ، ووجْهُه على هيئة وجوه الناس . وقال أهل الرواية : عنقاء مُغْرِب ، إنما هو الأمر العجيب . والعَنَق : السرعة ، وذكرتْ عجائبَ البلدان بمجلس الراضى، فقال قائل : أَعجَبُ ما فى الدنيا طائر بأرضَ طبرِستان على شاطىء الأنهار شبيه بالباشق ، يسمّى الكلم ، وهو يصيح فى فصل الربيع فتجتمع إليه العصافير ، وصغار الطير ، فتزقّه ، فإذا كان آخر النهار أخذ واحداً مما قرب من الطير فيأكله ، فذلك فعلُه إلى أن ينقضى فصل الربيع، فتجتمع إليه العصافير وصغار الطّير فتطرده وتضربه، فيفرّ منها فلا يسمع له صوت إلى الفصل الربيعى . وهو طائر حسن ، موشّى العينين .

وذكر الجاحظ أنه من عجائب الدنيا ، وذلك أنّه لا يَطَأُ الأرض بقدميه ، بل بإحداهما خوفاً على الأرض أن تنخسف من تحته ، والثانى دودة تُضِىء بالليل كالشمع ، وتصير بالنّهار لها أجنحة خُضْر ،وبالليل لا جناحين لها ، غذاؤها التراب ، لم تشبع قط منه خوفاً أن يفنى التّراب فتموت جوعاً ، والثالث أعجب من الطّائر ،والدّودة من يكرى نفسه للقتال،يعنى المسترزقة من الجند ، فاستحسن الخبرَ مَنْ حضر ، فقال الرّاضى معارضاً لما ذكر الجاحظ أنّ أعجب ما فى الدنيا ثلاث : البوم ، لا تظهر بالنهار خوفاً أن تصيبها العين لحسنها وجمالها ، فتظهر بالليل ، الثانى الكركىّ لا يطأ الأرض بقدميه معاً بل بإحداهما فإذا وطئها

لم يعتمد عليها اعتماداً قوياً خوفاً من أن تنخسف الأرض بثقله ، الثالث الطائر الذى يقعد فى مشارق الماء من الأنهار الذى يُعْرَف بمالك الحزين ، يشبه الكركىّ لا يشبع من الماء خشية أن يفنَى فيموت عطشاً . فافترق أهلُ المجلس والكلّ متعجبون من الرّاضى كيف تأتّى منه مثل هذه المذاكرة مع مَنْ حضره من أهل السنّ والمعرفة مع صِغَر سنه . والحكاية بكمالها فى كتاب المسعودى .

[الزرقاء]

وأما الزرقاء فكانت تُبْصر على مسيرة ثلاث ليال ، وكانت من جَديس ابن عامر بن إرَم بن سام بن نوح ، وكان مع جَديس طَسْم بن لاوذ بن إرَم ، وكانت مملكتُهم فى طسْم ، وكانوا يَسْكنون اليمامة ، وهما من العرب العاربة فأقاموا بُرْهة ، وبلادهم أفضلُ البلاد ، حدائق ملتفّة ، وقصور مصطفّة ، فكفروا بأنعم الله فأهلكهم ، وذلك لأنهم ملّكهم عُمْلوق بن طسْم ، وكان غشوماً لا يملك نفسَه فى هواه ، فاختصمت إليه امرأة من جَديس اسمها هزيلة مع زوجها فى ابن لها ، فأمر بالولد فجعلَ فى غلمانه ، وأمر بالزوج أن يُباع وتُعْطَى المرأة عُشْر ثمنه ، وبالمرأة أن تَباع ويُعطَى الزوج خمس ثمنها ، فقالت هزَيلة :

أتينا أخا طسْمٍ ليحكم بيننا فأبدع حُكْماً فى هزيلَة ظالما

وهى أبيات ، فبلغَه قولُها ، فأمر ألاّ تتزوّج امرأة من جَديس حتى تُحمَل إليه قبل زَوْجها فيعتذرها ، فلقوا منه ذلًّا طويلا إلى أن تزوّجت الشموس بنت غفَار أخت الأسود بن غفار ، وكان سيّدَ جَديس فلما كانت ليلَة إهدائها حُملت إليه ، والقيان معها يقُلْن :

ابدأ بعملوقٍ إليه فارْكبِ وبادر الصّبْح بأمر معجبِ

* فما لبكر بعدكم من مذهبِ *

فلما افتضّها ، خرجت على قومها فى دمائها شاقةَ جيبَهَا من دُبر ومن قُبُل وهى تقول :

أَيصلح ما يؤتى على فتياتكمْ وأنتمْ رجال فيكمُ عددُ الرَّمْلِ
فإن أنتمُ لم تَغْضَبُوا بعد هـذهِ فكونُوا نساءً لا تفرّ من الفَحْلِ
فلو أننا كنّا رجالًا وكُنتمُ نساء لكنا لا نُقيم على الذلّ

فأنفت جديس عند ذلك ، واجتمعت إلى أخيها الأسود ، وأجمعوا على أن يصنعوا لها طعاماً ، فيدعو عملوقاً مع قومه فإذا جاءوا فى الخيل والبغال عمّوهم بالقتل ، فقالت الشموس لأخيها : الغدر عار وعاقبته بوار،صبحّوا القوم فى ديارهم تظفرُوا أو تموتوا كراماً ، فقالوا لها :المكرُ أمكنُ من نواصيهم . ثم صنع لهم الطعام ودفنوا سيوفَهم فى الرمل ، فلما استكملوا فى المِدْعاة أتوا عليهم أجمعين ، وهرب من طسم رياح بن مرة،فأتى حسان بن تبّع لينصره، فاستبعدوا أرضَهم ، وكان قد تُبّع لرياح كلبة ، فضربها فى رِجْلها حتى عرجت ، فقال : أبعيدة أرض قطعتْها كلبة عرْجاء ! فتجهز معه بجيش فلما صاروا من جَديس على ثلاثة أيام ، صعدت الزرقاء على منارٍ كان لها لتنظر الجيش، وكان رياح قد قال لهم : إنّ الزرقاء تُبْصِر على ثلاث ليال ، ولكنْ ليقطعْ كل رجلٍ منكم غصناً من شجر ، فيحمله لتشبّه عليها ، فلما رأتهم، قالت : يا قوم أتتكم الشجر أو أتتكم حِمْير ، فلم يصدقوها فقالت :

أُقسِمُ بالله لقد دبَّ الشَّجَرْ أو حمير قد أقبلت شيأ تجرّ

فكذّبوها ، وقالوا . كلّ بصرُك وضَعُف،فقالت:أقسِم بالله لقد أرى رجلا ينهش كَتِفاً ، أو يَخْصِفُ نعلا،فتهاونوا بحديثها ، حتى صبّحهم حسان فاجتاحهم فأخِذت الزّرقاء ، فشق عيناها فإذا فيها عروق سود من الإثمد ، وكانت أول مَن اكتحل به ، وهرب الأسود ،.فنزل بطيٍّ ، فنسله فيهم ، وتسمى زرقاء

اليمامة ،واسم البلد جوّ، فلما صُلِبت على بابها ، سُمِّيت اليمامة ، وقيل: اليمامة اسم البلد ، واسم الزرقاء عَنْز ، وقيل إن حسّاناً لم يصلبها ، ولكن حملها فى السَّبْيِ ، وقالت عندما قُرِّبَ لها البعير لتركبه ، ولم تكن اعتادت ركوبه :

شرّ يوميها وأغواه لها ركبتْ عَنْز بجدْعٍ جَمَلا

وقيل إن عنزا هى أُخت الزرقاء ، وقال الشاعر :

ما نظرتْ ذات أجفان كنظرتها حَقًّا كما صدع الدّين الذّى صدعا
قالت أرى رجلًا فى كَفّه كتِفٌ أو يخصف النَّعل لَهفى أيةً صنعا
فكذّبوها فوافتْهَا على عَجَلٍ أقيال حمير تُزْجِى الموت والشّرعا
فاستنزلوا أهل جَوٍّ من معاقلهم وهَدّموا شامخ البنيان فاتّضعا

* * *

فسألتُهُمْ إيضاحَ ما قالُوا ، وأنْ يكيلُو لِي بما اكْتالوا ، فحكوْا أنَّهُمْ ألمّوا بِسَرُوح، بعد أن فارقهَا العُلوج،فرأوْا أَبَا زَيْدِها المعروف، قدْ لبِسَ الصُّوفَ ، وأمَّ الصّفُوفَ وَصارَ بِهَا الزَّاهِدَ الْمَوْصُوف ، فقلت: أتَعْنُونَ ذَا الْمَقامَات . فقَالُوا: إنّه الآن ذُو الكَرَامات،فحفزنى إليه النِّزَاع ، ورأيتُهَا فُرْصة لا تُضَاع ، فارتحَلْتُ رِحْلَةَ المِعِدّ ، وسِرْتُ نَحْوَهُ سَيْرَ الْمُجِدّ ، حتّى حَلَلْتُ بمسجِدِه ، وقَرارَةِ مُتَعَبَّدِه ، فإذا هو قد نَبَذَ صُحْبَةَ أصْحَابِهِ ،وانتصَبَ فى مِحْرَابِهِ ،وهُوَ ذُو عباءةٍ مخلولة ،وشَمْلَةٍ مَوْصولةٍ ؛ فهِبْتُهُ مَهَابَةَ مَنْ وَلجَ على الأُسود ، وألفيتُهُ مِمَّنْ سِيماهُمْ فى وُجُوهِهم من أَثَرِ السُّجُود . ولمّا فَرَغَ من سُبْحَتِه ، حيّانى بِمُسَبّحَتِه ، من غير أنْ نَغَمَ بحَديثٍ ، ولا استَخْبَرَ عن قديم ولاحَديث ، ثمّ أقبل

على أوْرَادِه ، وتَرَكَنِي أَعْجَبُ من اجْتِهَادِه ، وأَغْبِطُ مَنْ يَهْدِي اللهُ من عبادِه. ولم يزل فى قُنوتٍ وخُشُوع ، وسُجُود ورُكُوع ، وإخْبَاتٍ وخُضُوع ، إلى أنْ أكْمَلَ إقامة الخَمْس ، وصَارَ اليومُ أَمْسِ ، فحينئذٍ انكفأ بى إلى بيته ، وأسْهمنى فى قُرْصِهِ وزَيْتِهِ . ثم نهض إلى مُصَلَّاه ، وتخلَّى بمناجاة مَوْلَاه ؛ حتَّى إذا الْتَمَعَ الْفَجر ، وحقّ للمجتهد الأجْر ، عقَّبَ تهجُّدَهُ بالتَّسْبيح ، ثم اضطجع ضِجْعَةَ الْمُسْتَرِيح ، وجَعَلَ يُرَجِّعُ بصوتٍ فصيح :

* * *

قوله : يكيلوا لى ما اكتالوا ، أى يعطونى ما أُعطوا من العلم . ألوْا : نزلوا . العلوج : الروم . أمّ : صار إماما . حفزنى : عَجَّلَنِي . النزاع : الشوق . فرصة : غنيمة . المعدّ : الكامل العُدّة فى السفر . قرارة : الموضع الذى يقرّ فيه . متعبّده : موضع عبادته . نبذ : ترك . انتصب : قام ووقف . المحراب عند العرب : سيد المجالس ومقدّمها وأشرفها ، وقيل للقبلة محراب لأنه أشرف موضع فى المسجد ، وقيل للقصر محراب لأنه سيّد المنازل . الأصمعىّ المحراب عندهم : الغُرْفة .

أحمد بن عبيد : المِحْراب : مجلس الملك ، سمى بذلك لانفراد الملك به لا يقرَبُه أحد ، ومُسَمَّى محراب المسجد لانفراد الإمام به ، ويقال فلان : حَرْب لفلان ، إذا كان بينهما مباعدة . عباءة : كِساء . مخاولة بالية مشدودة بالخلال والشَّمْلة : الكِساء يُشْتَمل به . موصولة ، يريد أنها خلَقه قد تقطَّعت فوُصِلت وَلِجَ : دخل . ألفيته : وجدته . سيماهم : علامتهم حيّانى بمسبّحته ، أى بسبّابته وقد تقدّم ذكرها . نغم : تكلم بكلام خفىّ : والأوْرَاد : جمع وِرْد ، وهو النصيب من القرآن يقوم به الإنسان كلّ ليلة . أغبط : أحسد وأتمنّى أن أكون مثله .

وسجود ورَكوع: سجد الرجل إذا انحنى ومال إلى الأرض ، من قول العرب: سجدت الدابة وأسجدت، إذا خفضت رأسها لتركيب، ويقال : قنت الرجل ، إذا أخذ فى التعظيم والدعاء لله تعالى ، والقنوت على أربعة أقسام : الطاعة كقوله تعالى:(كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) والصلاة كقوله تعالى:(اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي)، وطول القيام ، كقوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل : أىّ الصلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت والسكوت، كقول زيد بن أرقم كنا نتكلم فى الصلاة يكلّم أحدُنا الذى يليه حتى نزلَ(وقُومُوا لله قَانِتِينَ) فأمسكْنَا عن الكلام، قال أبو عبيدة : ترى أنّ القنوت فى الصُّبْح سمِّىَ قنوتا لأن الإنسان قائمٌ فى الدُّعاء من غير أن يقرأ القرآن،فكأنه فى سكوت . إخبات ، أى تذلل . انكفأ : انقلب . أسْهَمنى ، أى أعطانى سهماً ، أى نصيباً . تهجّده : قيامه للصلاة .

* * *

خلِّ ادّكارَ الأرْبُعِ والمَعْهَدِ المرتَبِعِ
والظَّاعِنِ المودِّعِ وَعَدِّ عنه وَدَعِ
واندُبَ زماناً سَلَفَا سَوَّدْتَ فيه الصُّحُفَا
ولم تَزَلْ مُعْتكِفَا عَلَى القَبِيحِ الشَّنِعِ
كم ليلةٍ أَوْدَعْتَهَا ما أَثْمَاً أبْدَعْتَهَا
لِشَهْوَةٍ أَطَعْتَهَا فى مَرْقَدٍ ومَضْجَعِ
وكم خُطاً حَثَثْتَهَا فى خَزْيَةٍ أحْدَثْتَهَا
وتوبةٍ نكثْتَهَا للعب ومَرْتَعِ
وكمْ تجرَّأتَ عَلَى ربِّ السَّمَوات العُلَا
ولمْ تُراقِبْهُ وَلَا صَدَقْتَ فِيمَا تَدَّعِى

وكَمْ غمَضْتْ بِرَّهُ وكم أمِنْتَ مَكْرَهُ
وكم نَبَـــذْتَ أَمْرَه نَبْذ الحِـــذَا الرَقِّ
ولَمْ رَكَضْتَ فى اللَّعِبْ وفُهْتَ عمداً بالـكذبْ
ولَمْ تراعِ ما يَجِبْ من عَهْـــــدِهِ المتَّبَع
فَالْبَسْ شعارَ النّـــدِم واسْكُبْ شآبيب الدّمِ
قبْلَ زوالِ القـــــدَمِ وقَبْـــلَ سوءِ المَصْرَع
واخْضَعْ خُضُوعَ المعترِفْ ولُذْ ملاذَ المقـــترِفْ
واعْصِ هَوَاكَ وانْحَرِفْ عَنْهُ انحرافَ المُقْلِـــعِ
إلَام تَسْهُو وتَـــنِى ومُعْظَمُ العُمْـــرِ فَنِى!
فيما يضرُّ المقتـــــنِى ولَسْتَ بالمـــرْتَدِع
أما تَرَى الشَّيْبَ وخَطْ وخَطَّ فى الرّأس خُطَط
ومَنْ يَلُحْ وَخْطُ الشَّمَطْ بِفَـــوْدِه فَقَدْ نُعِى

* * *

ادّكار : تذكر . الأربع : المنازل . عـدّ : كُفّ . دَع : اترك . اندب : ابك . سلف : ذهب وتقدّم . الصحف : الكتب . المعتكف : المقيم . الشنع : الذى يُتَحدّث بقبحه . أودعتها : أى ضمنتها وجعلتها فيه . المآثم : الذّنوب . أبدعتها : اخترعتها . خطاً : جمع خُطوة وهى الباع . حثثتها : عجلتها . خِزْى : هوان . ونَكَثْتَها : نقضتها . مرتع : أكل رغد . تجرأت : تشجّعت وأقدمت . تُراقبه : تحارسه وتخشى منـــه . غمضت : نقصت . بره : إحسانه . نبذت : تركت . الحذاء : النعل . ركضت : جريت . فُهْت : نطقت . تُراع : تحفظ .

والعهد : الميثاق . شِعار : ثوب يُلْصَق بالجسد . اسكب : اسكب : صبّ . شآبيب : دُفَع المطر ، واحدها شؤبوب ، فاستعارها للدم كما استعار الدم للدمع. المصرع : موضع السَّقطة وصرعت: أسقطت . لُذْ : الجأ. ملاذ : ملجأ. المقترف: المذنب . انحرف : مل . المقلع : الذى يقلع عن المعاصى ويُفارقها . تسهو : تخطىء . تنى : تفتر . فنى : تمّ ، سكّن الياء ضرورة . المقتنى : المكتسب . المرتدع : المنتهى الكافّ عن شهواته. وَخَط : فشا وانتشر ، والوخط : مخالطة بياض شيب الرأس بسواده ، والوخط فى غير هذا الطَّعْن غير النافذ . خَطّ : كتب . خطط : طرائق . والشّمط : اختلاط بياض الشيب بسواد الشعر . بغوْده : بجانب رأسه . نعى : تحدّث بموته ، وقال الألبيرى :

الشَّيب نبّه ذَا النُّهى فتنبَّها ... ونَهَى الجهولَ فاستفاق ولا انْتَهَى

بل زاد غيًّا نفسه فتهافتتْ ... تبغى اللّهَا وكأنّها بين اللّها

فإلى متى ألهو وأفرح بالمُنَى ... والشيخ أقبح ما يكون إذا لَهَا

ماحسنه إلا التُّقى لا أن يرى ... صبًّا بألحاظ الجآذر والمها

أنَّى يقاتِلُ وهو مغلول الظّبا ... كأبى الجرىّ إذا استقلّ تأوّها

محقَ الزمانُ هلالَهُ فكأنما ... أبقى له منه على قدر الشَّها

فغدا حسيراً يشتهى أن يشتهى ... ولكم جَرَى طلق الجُموح كما اشتهى

إن أنّ أوّاه وأجهش بالبُكا ... لذنوبه ضحِك العدوّ وقهقَها

ليست تُنَهْنِهُهُ العِظاتُ ومثلُه ... فى سنّه قد آن أن يتَنَهْنَهَا

فقد اللّداتِ وزاد غيًّا بعدهم ... هلاَّ تيقّظ بعدهمْ وتنَبَّها

ياويحه ما بالُه لا يَنْتَهِى ... عن غَيِّه والعمرُ منه قد انْتَهَى !

* * *

وَيْحَكِ يَا نفسُ احْرِصِى على ارتيـــادِ المَخْلَصِ
وطـاوِعِى وأَخْلِصِى واسْتَمِعِى النُّصْحَ وَعِى
واعْتَـبِرِى بِمَنْ مَضَى من القُرُونِ وانْقَضَى
واخْشَىْ مُفَـاجاةَ الْقَضَا وحَاذِرِى أن تُخْدَعِى
وانتَهِجِى سُبْلَ الهُـدَى وادَّكِرِى وَشْكَ الرَّدَى
وأَنَّ مثواكِ غَـدَا فى قَعْرِ لَحْـدٍ بَلْقَعِ
آهًا له بيتَ البِـلَى والمنزلَ القفرَ الخَـلَا
ومورِدَ السَّفْرِ الأولَى واللَّاحِقِ المتْبِـعِ
بَيْتٌ يُرَى مَنْ أُودِعَهْ قَدْ ضَمَّـهُ واسْتُودِعَهْ
بَعْدَ الفضـاءِ والسَّعَهْ قِيـدُ ثَلَاثٍ أذْرُعِ
لا فَرْقَ أن يَحُـلَّهُ داهِيَـةٌ أو أَبْلَهُ
أو مُعْسِرٌ أو مَنْ لَهُ مُلْكٌ كَمُلْكٍ تُبَّعِ

* * * *

قوله : ارتياد ، أى طلب . المخلص : المنجَى . عى : احفظى ، وهو أمر للمؤنث من وَعَى يَعِى . اعتبرى: اتعظى . القرون : الأمم السابقة : انقضى : فرغ وتم . والقضاء هنا : الموت . ومفاجأته : إتيانه على غفلة . حاذِرى : خافى. انتهجِى : اسلُكى وامشى فى نهج ، وهو الطريق البين . سبل الهدى : طرق الرشاد . ادَّكرى : تذكرى . وشك الردى : سرعة الموت . مثواك : موضع إقامتك، لأنّ المثوى والثَّواء: الإقامة . والمثوى : الموضع الذى تقيم فيه . لحد : شق فى جانب القبر . بلقع : خالٍ . آها : كلمة توجع . مورد : موضع الماء .

السَّفر: المسافرون . الأولى: الأولون المتقدّمون،والألى: مقلوب الأول، تقول : أولَى وأوَّلُ ككُبْرى وكُبَر ،وأُخْرى وأُخَر ، ثم قلبوا الأول فقالوا: الأولى ، وتأتى الأولى فى كلامهم بمعنى الذين موصولة وهى كثيرة ، يريد أن القبر موردٌ للأولين والآخرين ،وسماهم سفْراً، لأن الإنسان فى الدنيا مسافر لا يقيم ؛ إنما يقطعُ أيامه ، وقال التِّهامى :

العيش نومٌ والمنيَّـــة يقظة والمرء بينهما خيالٌ سارِى
فاقضُوا مآربكمْ عجالاً إنما أعماركمْ سفرٌ من الأسفـارِ

قيْد : قَدْر ، فإن قيل : كيف جعل القبر ثلاثة أذرع ، والذراع شبران ، والقدر قدره مابين تسعة أشبار إلى ثمانية؟ فأخبرنى الحاج ابن السقاط أن عندهم بالمشرق ذراعاً يسمونه المالكى ، يذرعُون به ثيابهم وغيرها فيه من ذراع اليد ذراع ونصف .

وقال أبو القاسم الزجاجى : الذّراع الهاشمى ذراع وثلث ، ففى ثلاثة أذرع بالهاشمى ثمانية ففى ثلاثة أذرع بالهاشمى ثمانية أشبار ،وبالمالكى تسعة أشبار ، فإحدى الذراعين أراد .

وإنما نقل لفظ ثلاثة أذرع من قول عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: كيف بك إذا أنت مت ؟ فانطلق بك قومك ، فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ، ثم رجعوا بك فغسلوك وكفنوك وحنّطوك ثم حملوك حتى يضعوك فيه ،ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك،فإذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر مُنْكَر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، يجرّان أشعارهما ،ويحثيان التراب بأنيابهما فتلتلاك وتَرْتراك، كيف بك عند ذلك ياعمر؟ قال عمر :ويكون معى مثل عقلى هذا ؟ قال : نعم ، قال : فإذن أكفيكهما .

[ذكر تبع الأكبر]

داهية : مجرب للأمور حاذق بها . أبله : عى كثير الغفلة . مُعْسِر: فقير . تبع ، أراد به تُبَّعًا الأكبر ، وهو الذى ذكر الله فى كتابه .

قال صاحب التيجان . اسمه شمو رعش بن ناشر النّعم ، وسمى أبوه ناشر النعم لأنه أحيا مُلْك حمير بعـــد أربعين عاماً ، وهى أيام مُلْك سليمان وسمى شمغورش تبّعا الأكبر ، وإن كانت العرب لم تسمِّ قبلَه تُبَّعًا لأن العرب لم يقم لها أحفظ منه ، وكان يتجاوز عن مسيئهم ويُحسن إلى محسنهم ، وكان جميع أهل الأرض شاكرين لأيامه، وكان أعقل مَنْ رأوا من الملوك وأعلاهم همةً، وأبعدهم غَوْراً، وأشدهم مكراً لمن حارب ،وغزا جميع ملوك الآفاق ، وقطع بجيوشه الأرض كلَّها شرقاً وغرباً. ثم رجع إلى قصر غمدان يدير ملك الأرض وذلَّتْ له ملوكها وعمَّر زماناً طـــويلا ، وهو أوَّلُ مَنْ أمر بصنعة الدروع السوابغ ، جعل على أهل فارس ألف درْع ، وعلى الروم ألفِ درْع ، وعلى اليمن كذلك ، وعلى ممالكه كلها مثل ذلك فكانوا يَغْدُون عليه كل سنة بذلك المدد ، ولذلك قال أبو ذؤيب :

وعليـــه مسرودتان قَضَـاهما داود أو صنع السوابغ تُبّـعُ

وقال ابن الكلبي: لم يملك الأرض كلَّها إلا ثلاثة أبرار ،وهم سليمان عليه السلام وذو القرنين وتُبَّع ، وهو أســـعد وأبو كرب . وثلاثة كُفّار ، وهم النمروذ وبختنصر والضّحاك. وأبو كرِب الذى ذكر هو تبع، وكان مَلِكاً عظيما ، فتح البلاد ، وملك العباد ، وأقبل من اليمن يريد العراق فنزل الحيرة وحفر لهم نهراً ، وهو نهر الحـــيرة إلى سوقها ، وبعث إليه حسان فى جنده ليطوفَ الأرض،فمضى به حسان فى عسكر عظيم جرار، لا يمرّ بمدينة إلافتحها ولا ملك إلا قهره . وقيل فى تسمية ملوك اليمن تبابعة أنه لكثرة مايقبع الملك منهم من الجنود . وقيل: سُمِّى تُبَّعًا لأنه تبع من قبله . ولابن سُكّرة فى معنى بيت المقامة .

الجوع يطرَد بالرغيف اليابس فعلام تُكثِر حسرتى ووساوسى
والموت أنصف حين عدّل قسمة بين الخليفة والفقير البائس

* * *

وبَعْدَهُ الْعَرْض الَّذِى يَحْوِى الحَيِيَّ والْبَذِى
والمبتدِى والْمُحْتَذِى ومَنْ رَعَى ومَنْ رُعِى
فَيَا مفاز المتَّقِى وربْحَ عَبْدٍ قَدْ وُقِى
سُوءَ الحسابِ المُوبِقِ وهَوْلَ يومِ الْفَزَعِ
ويا خَسارَ مَنْ بَغَى ومَنْ تَعَدَّى وطَغَى
وشبَّ نيرانَ الْوَغَى لمطعَمٍ أو مَطْمَعِ
يا مَنْ عليه المتَّكَلْ قَدْ زاد ما بى من وَجَلْ
لما اجترَحْتُ مِنْ زَلَلْ فى عُمْرِىَ المُضَيَّعِ
فاغْفِرْ لعبدٍ مُجْتَرِمْ وارْحَمْ بُكَاءَ المُنْسَجِمْ
فأنْتَ أَوْلَى مَنْ رَحِمْ وخيرُ مَدْعُوٍّ دُعِى

* * *

قوله : وبعد العرض ، يريد عَرْض الناس للحساب . يحوى : يضُمّ . الحيي : المستحيي . البذِىّ : المتكلم بالفواحش. المحتذى : المتبع:الحاذى حذوه. رعى : ملك ، يريد أن العَرْض يعمّ الناس، فيحتوى على العفيف والبذى ،وعلى الأغنياء والفقراء والملوك ورعيتهم ولا يتميز فيه أحد ولا يشرف إلا بعمل صالح . قوله : فيامفاز المتقى . المفاز : الخلاص . وقى : كفى . الموبق : المهلك . هَوْل : خوف . بَغَى : ظلم . وتعدّى : جاوز الحد فى جوره . طغى : جاوز الحد فى تكبره . شبّ : أوقد . الوغَى : الحرب . وجل . خَوْف . اجترحت :

اكتسبت . زلل : خطأ . زفير : نفخ . والشهيق : رد النَّفَس مع البكاء بصوت . ردْفه : خلْفه .

* * *

قال الحارثُ بن هَمَّام : فلم يَزَلْ يُرَدِّدُهاَ بصوْتٍ رقيق ، ويَصِلُها بزفيرٍ وشَهيقٍ ، حتّى بَكيتُ لبكاءِ عَيْنَيْه ، كما كنتُ من قبلُ أَبْكِى عَلَيْه . ثم بَرَزَ إلى مسجده ، بوُضُوءِ تهجّده ، فانطَقْتُ رِدْفَهُ ، وصَلَّيتُ مَعَ مَنْ صلّى خلفه . ولما انْفضَّ مَنْ حَضَرَ ، وتَفرّقُوا شَغَرَ بَغَر ، أَخَـذ يُهَيْنِمُ بِدَرْسِهِ ، ويَسْبِكُ يَومَهُ فى قالِبِ أَمْسِهِ ، وفى ضِمْنِ ذَلِكَ يُرِنُّ إرنانَ الرَّقُوب ، ويَبْكِى ولا بكاءَ يَعْقوب ، حتّى اسْتَبَنْتُ أنَّه الْتَحَق بالأَفْرَاد ، وأُشْرِبَ قلبهُ هـوى الانْفِرَاد ، فأَخْطَرْتُ بقَلْبِى عَزْمه الارْتحال ، وتخليتَه والتَّخَلِّىَ بتلك الحال ، فـكأنّه تَفَرَّسَ ما نَوَيْت أو كوشِفَ بِمَا أَخْفَيْت ، فزَفَر زفيرَ الأوّاه ثم قرأ : «فإذا عَزَمتَ فتوكَّلْ على الله» ؛ فأَسْجَلْتُ عِنْدَ ذلك بصدْقِ المحدِّثين ، وأيقَنْتُ أنَّ فى الأمّةِ محدَّثين . ثم دنوتُ إليه كما يَدْنُو المُصافح ، وقلت : أوْصِنى أيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالح . فقال : اجْعَلِ الموْتَ نُصْبَ عَيْنِكَ ، وهذا فِرَاقُ بينى وبينك . فودَّعتُه وعَبَرَاتى ، يتحدّرْن من المآقى ، وزفَراتى يتصعَّدن من التَّراقِى ، وكانت هذه خاتِمة التّلاق .

* * *

انفض : تفرق . شغَر بغَر ، أى فى كل طريق وعلى كل جهة . يهيم : يرد كلامه خفياً لا يفهم . يسبك يومه فى قالب أمسه : استعارة ، أى يفعل فى اليوم ما فعل فى الأمس . وفى ضمن ذلك ، أى فى أثنائه. يرنّ : يصوت . الرَّقُوب : المرأة التى لا يعيش لها ولد . ولا بكاء يعقوب : يجوز رفع بكاء ونصبه والرفع أكثر . وبكاء يعقوب على يوسف عليهما السلام حتى عَمِىَ ، وهو قوله تعالى : « وابيضَّتْ عيناه من الحزْن فهو كظيم » ، استبنت : تحققت . الأفراد : العباد ، يقال: فلان فرد فضله، أى ليس له نظير ، والأفراد سبعة من العباد لا تخلو الدنيا منهم حتى إذا مات واحد خلف الله تعالى فى موضعه آخر . أُشْرِب : خولط وغلب عليه . هوى الانفراد : حب الوحدة ، قال ابن الرومى :

إلى الزَّهاد فى الدُّنيا جنان الخلد تشتاقُ
عبيد من خطاياهمْ إلى الرحمن أُبَّاقُ
حدَتهمْ نحوه الرَّغبة مع الرَّهبان فاستاقوا
عليهم حين تلقاهم سكينات وإطراقُ
يضجون إلى الله ودمع العينِ مهراقُ
مليك الملك هل مما تطوّقناه إطْلاَقُ
فنى أعناقنا طرًّا من الآثام أطواق

وللفقيه أبى العباس بن خليل :

فهموا إشارات الحبيب فهاموا وأقام أمْرَهمُ الرَّشاد فقامُوا
وتوسَّلوا بمدامعٍ منهلَّةٍ تحت الدياجى والأنام نيامُ
وتلوا من الذكر الحكيم جوامعاً جُمِعت لها الألباب والأفهام
ياصاح لو أبصرت ليلهم وقد صفت القُلوبُ وصُفَّت الأقدام

لرأيت نورَ هداية قـد حفَّهُمْ فسرَى السُّرور وأشرق الإظلامُ
فهم العبيـد الخادمون مليكهمْ نعم العبيـد وأفلح الخـدَّامُ
سلموا من الآفات لما استسلموا فعليهمُ حـتى المماتِ سـلامُ

وقالوا فى هوى الانفراد : الوحدة خير من القرين السوء ، وأنشدوا :

أنِسْتُ بالوحـدة علماً بها فإنها خـير من الجمْعِ
ألا ترى الواحد أصْلاً لما يحسب من أصلٍ ومن فرعِ
أترك من لا أرتجى نفعَـه رجاء ربِّ الضر والنفـع

آخـر :

أنست بوحـدتى حتى لو انى أتانى الأنس لاستوحشت منه
ولم تدع التجارب لى صـديقاً أميل إليـه إلَّا مِلْتُ عنه

وقال آخر :

اهرب بنفسك تستأنسْ بوحدتها تلق الرَّشاد إذا ما كنت منفردا
إن السِّباع لتهدأ فى مرابضها والناس ليس بهادٍ شرُّهمْ أبدا

قوله : تفرّس ، أى علم بفراسته وجوْدة نظره . نويت: أضمرت فى نيتى . كوشف : اطلع عليه . زفر : نفخ . الأواه : الحزين الذى يصيح : آه آه . أسجلت : صدقت . المحدّثين : الذين حـدثوه بتوبة السروجى . محدّثين ، هم المكاشفون من الزهاد الذين يحدثون بالغيوب ، كأن المكاشف قد حدث بما يقول . وقيل: المحدّثون الصّادقون ظناً وفراسة .

وقال صلى الله عليه وسلم: « قد كان فيمن قبلكم ،محدّثون ،فإن يكن من أمتى هـذه فهو عمر بن الخطاب» . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه المعنّى وهو الصادق الظنّ ، ودليله ماذكره صلى الله عليه وسلم فى عمر حديث سارية

ابن زُنَيم ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه قد أرسله فى جيش للمسلمين ، فألقى الله فى روح عمر رضى الله تعالى عنه وهو يخطُب الناس بالمدينة : إن العدوّ قد نهز المسلمين واشتد الخطب عليهم ، وكانوا بحضرة جبل ، فقطع عمر الخطبة وقال : ياسارية الجبل ، فأسمع الله تعالى سارية من مسافة شهر نداء عمر ، فانحاز بالمسلمين إلى الجبل، فتخلصوا . قوله : المصافح ،أى المعانق عند الوداع . نصب عينك ، أى غرضها وقدامها ، وأول مَنْ قال : اجعل الموت نصبَ عينك أُمية بن أبى الصلت فى قوله :

كلُّ عيش وإن تطاول يوماً صائر أمره إلى أنْ يَزُولاَ
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لِى فى رءوس الجبال أرْعَى الوُعولا
فاجعل الموت نُصب عينك واحذرْ غولة الموت إن للموت غولا

عبراتى : دموعى . يتصعدن : يترفعن . التراقى : العظمان المعوجان أعلى الصدر . خاتمة التلاقى : آخر لقائه .

[شعر الوداع]

ونذكر هنا جملة من الشعر فى ذكر الوداع الذى كان بينهما ونجعلها كالتوديع لما سلف لهما فى هذا الكتاب من رياض الآداب فإنها كانت أُنس الوحيد ، ومسلاة الطريد ، فمن ذلك قول بعضهم :

وداعك مثلُ وداع الرَّبيع وفقدك مثل افتقاد الدِّيَمْ
عليك سلام فكم من ندى فقدناه منك وكمْ من كرمْ

وقال آخر :

أقول له يوم ودّعته وكلٌّ بعبرته مُبْلِسُ
لئن رجعتْ عنك أجسامُنا لقد سافرت معك الأنْفُسُ

وقال أبو سعيد الهمذانى : أنشدنى هلال بن الغلاء حين ودّعنى :

لأودعنّك ثم تدمع مقلتى ... إن الدموع هى الوداع الثانى
وأصوم بعدك عن سواك فأغتدى ... متقلداً صومين فى رَمَضَانِ
فى فرقة الأحباب شغل شاغلٌ ... والموت صدقاً فرقة الإخوان

(وأنشدنى أبو محمد بن حزم)

لئن أصبحتُ مرتحلاً بشخصى ... فقلبى عندكم أبداً مقيمُ
ولكن للعيان لطيف معنًى ... له سأل المعاينةَ الكليم

وكرر هذا المعنى فقال :

يقول أخى شَجَاك رحيلُ جسمٍ ... وروحك ما لها عنه رحيلُ
فقلت له المعاينُ مطمئن ... لذا طلب المعاينةَ الخليلُ

وقال آخر :

بَانُوا فأضحى الجسم من بعدهمْ ... ما تبصر العين له فيّا
ووا أسفى منه ومنْ قولهمْ ... ما ضرّك الفقد لنا شيّا
بأى وجهٍ أتلقاهم ... إن وجدونى بعدهمْ حيّا

وقال آخر :

لا كان يوم الفراق يوماً ... لم يُبْقِ للعاشقين نَوْما
شتّتَ منى ومنك شملا ... فسر قوماً وساء قوما
يا قوم مَنْ لى بفقد خل ... يسومنى فى العذاب سَوْما
ما لامنى الناس فيه إلا ... بكيت كيما أزاد لوما

وقال صاعد اللغوى :

قلت له والرقيب يعجله مستعجلاً للفراق : أين أنا

فمدّ كفا إلى ترائبه وقال : سر آمناً فأنت هنا

* * *

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن علىّ ، بَرّد اللهُ مضجعه : هذا آخر المقامات التى أنشأتُها بالاغترار ، وأمْلَيْتُها بِلِسَان الاضطِرار ، وقد أُلْجِئتُ أنْ أَرْصُدَها للاسْتِعْرَاض ، وناديتُ عليها فى سُوقِ الاعْتِراض ، هذا مع معرفتى بأنّها من سَقَط المتاع ، ومِمَّا يستوجب أن يُباعَ ولا يُبتاَع ، ولو غَشِيَنى نورُ التوفيق ، ونظرت لنَفْسِى نظر الشّفيق ، لسَتَرْتُ عَوارِى الّذى لم يَزَلْ مَسْتوراً ، ولكن كان ذلك فى الكتاب مسطوراً . وأنا أستغفرالله تعالَى مِمَّا أودَعْتُها من أباطيلِ اللّغو ، وأَضالِيلِ اللّهْو ، وأَسْتَرْشِده إلى ما يَعْصِم من السَّهو ، ويُحْظِى بالْعفوِ ، إنّه هو أهلُ التَّقْوى وأهلُ المغفِرة ، وولىُّ الخَيْرات فى الدّنيا والآخرة .

* * *

قوله : أنشأتها ، أى صنعتها . الاغترار : الجهل والانخداع . أمليتُها : أَلقيتها لمن يكتبها . واضطر اضطراراً إذا لم يجدَ بُدًّا من فعله . أرصدتها : أعددتها . الاستعراض : أن تعرض على النَّاسِ حَتَّى يروْها . سقَط المتاع : هجينة . يبتاع : يشترى . غَشِيَنِى : غطانى . أودعتها : ضمنتها . اللَّغْو : سَقَط الكلام . الأضاليل : جمع أضلولة ، وهى مايضل به مَنْ ركبه . أسترشده : أستهديه . يعصم : يمنع . السهو : الخطأ . يحظى : يسعد . العفو : المغفرة .

وقوله : هو أهل التقوى ، عن أنس رضى الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول ربُّكم عز وجل: أنا أهلُ التقوى فلا يشرك بى غيرى، وأنا أهل لمن اتقى أن يشرك بى أن أغفر له .

* * *

انتهى الشرح بحمد الله وتوفيقه وحسن عَوْنه،وكان من توفيق الله تعالى أن أوّل حرف شرحت من اللغة فى هـذا الكتاب حَمْد الله ، وآخر حرف ختمت به عَفْو الله ، وما وقع بين حمد الله سبحانه وتعالى ، والثناء عليه ، وبين عَفْوه عن عبيده مرجوٌّ من جميل صنعه الامتنان بالصفح عن جميع هَذَره ، وملتمَس من جلاله تعالى وكرمه جزيلُ الأجر على ما ضمنته من حكم الآداب وغيره .

[ذكر فى العفو عن المذنبين]

واذكر فصلاً أدبيًّا فى العفو عن المذنبين، أختم به الديوان ، فمن وَقَف عليه ، ووجد فى نفسه لذته، واستشعر؟ لرجاء ، وطمع فى العفو ، فرغبتُنا إليه أن يسأل لنا العفو مع نفسه .

فمن ذلك أنه كان للمأمون خادم لوضوئه ، فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء ، فغضب المأمون فقال له الخادم : ياأميرَ المؤمنين إن الله تعالى يقول:﴿والْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾،قال: كظمت غيظى،قال:﴿والعافين عن الناس﴾، قال : عفوت عنك ، قال : ﴿ الله يحبُّ المحسِنِينَ ﴾، قال : اذهب فأنتِ حرٌّ .

وأمر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بعقوبة رجل، فقال له رجاء بن حيوة: إن الله تعالى قد فَعَل ماتحبّ من الظفر ، فافعل ما يحبّ من العفو ، فعفا عنه .

العتبى:وقعت دماء بين حيَّين من قريش ، فأقبل أبو سفيان فما بقى أحد

واضع رأسه إلّا رفعه ، فقال : يامعشرَ قريش ، هل لكم فى الحق أو فيما هو أفضل من الحق ؟ قالوا ؟ وهل شىء أفضل من الحق ؟ قال : نعم العفو، فتبادر القوم فاصطلحوا .

قال المبارك بن فضالة : كنت جالساً فى السِّماط عند أبى جعفر إذ أُمر برَجلٍ أن يُقْتَل فقلت: يا أمير المؤمنين ، قال صلى الله عليه وسلم: « إذا كان يوم القيامة ينادِى منادٍ بين يدى الله عز وجل : مَنْ كانت له يد عند الله فليقُمْ، فليتقدم فلاَ يتقدَّم إلا من عفا عن مذنب » . فأمر بإطلاقه .

وكان رجل شرِّيب جمع قوماً من ندمائه ودفع إلى غلام له أربعة دراهم أن يشترىَ بها من الفواكه للمجلس ، فمرَّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار، وهو يسأل الفقير شيئاً ، ويقول : مَنْ دفع له أربعة دراهم دعوتُ له أربعَ دعوات ، فدفع له الغلام الدراهم، فقال له منصور : ما الذى تريدُ أن أدعولك ؟ قال : أن يعتقنى الله من رقِّ العبودية ، فدعا له منصور وأمّن الناس . قال : والثانية ؟ قال: أن يخلف الله علىّ الدراهم ، فدعا له وأمّن الناس، قال : والثالثة ياغلام ؟ قال : أن يتوب الله على مَوْلاَى، فدعا له وأمّن الناس، قال : والرابعة ياغلامُ؟ قال : أن يغفرالله لى ولمولاى ولك يامنصور وللحاضرين ، فدعا منصور وأمّن الناس ، فرجع الغلام ، فقال له مولاهُ لمَ أبطأت ؟ فقص عليه القصة ، قال : وبمَ دعا ؟ قال : سألت لنفسى العِتْق ، قال : اذهب فأنت حرّ ، قال : والثانية ؟ قال: أن يخلف الله علىّ الدراهم، قال: لك أربعة آلاف درهم ، قال : والثالثة ؟ قال: أن يتوب الله عليك ، قال : تبت إلى الله عز وجل . قال : والرابعة ؟ قال : أن يغفرلى ولك ، وللواعظ وللحاضرين ، وقال : هذه الواحدة ليست إلىّ. فلما بات رأى فى المنام كأن قائلاً يقول : أنت فعلت ما كان إليك، أترانى لا أفعل ما كان إلى ! قد غفرت لك وللغلام ولمنصور وللحاضرين .

قال يحيى بن معاذ : يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلبُ رجائى لك مع الإخلاص ،لأنى أعتمد فى الإخلاص على الأعمال ، وفى الذنوب أعتمد على عفوك ، وقال السَّلامى .

تبسطنا على الآمال إنا رأينا العفو من ثمر الذنوب

وقال بكر بن سليمان الصواف : دخلنا على مالك بن أنس فى العشيَّة التى قُبض فيها ، فقلت: يا أبا عبد الله، كيف تجدك؟ قال : لاأدرى ما أقول لكم ، ستعاينون من عفو الله تعالى مالم يكن فى حسابكم . ثم ماخرجنا حتى أغمضنا عينيه .

وفى الحديث: «لو لم تذنبو الجاء الله بأمة يذنبون فيغفر لهم»،وقال أبو نواس:

يانواسى توقَّرْ وتعزى وتَصبَّرْ
ساءك الدهر بشىء ولَما سرك أكثرْ
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبِك أكبَرْ
أكبر الأشياء فى أصغر عفو الله أصغرْ
ليس للإنسان إلا ماقضى الله وقَدّرْ
ليس لمخلوق تدبيرٌ بل الخالق دَبَّرْ

وقال أبو العتاهية :

إلهى لاتعذِّبْنى فإنى مقربا بالذى قد كَان منِّى
فما لى حيلة إلا رجائى لعفوك إنعفوت وحُسْن ظنى
يظن الناس بى خيراً وإنى لشَرُّ الناس إن لم تعف عنى

وكم من زلة فى الخطايا وأنت علىّ ذو فضل ومنِّ
إذا فكرت فى ندمى عليها عَضَضْتُ أناملى وقرَعْتُ سِنِّى

وهذا آخر شعر قاله أبو العتاهية ، وآخر شعر ختمت به هذا الشرح ، راجياً من ربى صفحَه وعفوَه ،والحمد لله أولاً وآخراً كما يجب لجلاله غفرانك. اللهم تباركت وتعاليت . والحمدلله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، ورضى الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .